عوائل الأعيان
في غابر العصور والأزمان
للدكتور رودلف زلهايم

من منا لم يعد خلال مطالعاته وأبحاثه إلى أمهات كتب التراجم الإسلامية الثرة ، ومن منا لم يلاحظ أن كثيراً ممن ذكر فيها من الرجال والنساء ليسوا دوماً أشخاصاً متفرقة بل إنهم ينتمون غالبا إلى عوائل معينة ، أخرجت العديد من رجال العلم والدولة . ومما يجدر التنويه به من كتب التراجم الضخمة التي صنفت مثلا بعد عصر التتار ، وهي لعمري غيض من فيض :

كتاب « الدرر الكامنة في عيان المئة الثامنة » لابن حجر العسقلاني (ت ٨٥٢/١٤٤٩) وهو يضم ماينوف عن ٥٠٠٠ ترجمة ، وكتاب « المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي » لابن تغري بردي (ت ٨٧٤–١٤٧٠) وفيه حوالي ٢٨٠٠ ترجمة لأعلام القرن السابع إلى التاسع الهجري / ١٣–١٥م ، وكذلك كتاب « الضوء اللامع لأهل القرن التاسع » للسخاوي (ت ٩٠٢–١٤٩٧) ، ويشمل حوالي ١٢٠٠٠ ترجمة ، وكتاب « الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة » للغزي (ت ١٠٦١–١٦٥١) ، وفيه حوالي ١٥٠٠ ترجمة ، وأخيراً وليس آخراً : كتاب « خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر » للمحبي (ت ١١١١ – ١٦٩٩) ، وقد ترجم فيه لما يقارب من ١٣٠٠ رجل وامرأة .

إن هذه المصنفات وأمثالها لتمكننا من التعرف على عوائل كاملة ، عاشت في القاهرة مثلا ، أو في دمشق وحلب أو في بروسه أو في القسطنطينية ، بل وتمكننا من تتبع وإرجاع أصولها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أحياناً ، وملاحقة فروعها إلى عصرنا الحاضر ، كما تساعدنا على تبين وقائع وتواريخ حياة بعض أفرادها وأعمالهم ومهنهم . وليس غريباً أن يصبح بوسعنا اليوم تعميق مواد هذه المصنفات المدهشة والإضافة إليها .

كلنا يدرك ضخامة المادة المخطوطة التي خلفتها لنا العصور الإسلامية الغابرة

(*) لقد سقطت على الخبير ، فلقد تفضل صديقي الأستاذ حسام الصغير وأخرج هذه المحاضرة في حلة عربية أصيلة ، فله الشكر على جهوده وأفضاله الجزيلة .

وكلنا يعلم أيضا أن مفهرسى وواصفى هذه الوثائق الثرة يكتفون غالبا — وخصوصاً فى أيامنا هذه — بإثبات اسم مؤلف المخطوطة وعنوانها ، ولا يلتفتون إلى التقييدات المتناثرة عادة فى أول المخطوطة وآخرها أو على بطائنها وغلافها أو على جزازات محفوظة فى داخلها . مع أن هذه التقييدات البسيطة العابرة تستحق منا أقصى الاهتمام فهى التى تؤكد لنا غالبا المادة المعروضة فى كتب التراجم والتاريخ ، وقد تعدلها وتوسعها ، وتغنى بذلك معلوماتنا التاريخية عن الماضى وأهله ، وتكشف عن حياتهم اليومية وعن أعمالهم وإنجازاتهم ومشاكلهم وحاجاتهم كما أنها تمتاز بمصاحبتها للوقائع وشهودها للأحداث والأفكار ، فهى صادقة بقولها ، لم تتأثر بتفكير مصنف ، ولم تحرف بتداع خاطىء أو برواية راوٍ وتصحيف ناسخ وسنسوق فيما يلى بعض الأمثلة الموضحة لما قلناه[1] .

لقد عثرنا مثلا فى عداد كنز المخطوطات العربية المحفوظة فى مكتبة برلين الغربية على رسالة من أربع أوراق ، تبحث فى الخرقة الصوفية لمصنفها تاج الدين بن حمويه الجوينى[2] . من هذه الرسالة ، أو بالأصح : من إجازة مكتوبة فى آخرها. أفدنا أن حفيد حفيد المصنف من قبل الأم شهاب الدين الساوجى — ذكره ابن حجر العسقلانى دون إشارة إلى تواريخ حياته — قد درسها يوم الثلاثاء الخامس عشر من ذى القعدة سنة ٧٤٧هـ/٢٧ شباط ١٣٤٧م ، أى قبل حلول الطاعون بعامين ، فى دار الإمام شمس الدين الحسينى فى قبة الطواويس فى مدينة دمشق وكان شهاب الدين قد سمعها فى صباه على عم أمه وحفيد المصنف الشيخ يوسف ، يوم الجمعة فى العشرين من جمادى الآخرة سنة ٦٩٧ — ٤ نيسان ١٢٩٨ ، فى دمشق على جبل قاسيون ، وذلك بحضور أمه سفرى وشقيقها محمد وأختيها سارة وآمنة. فإن

---

(١) لقد اقتبسنا هذه الأمثلة من كتابنا حول المخطوطات العربية ، والذى صدر جزؤه الأول فى مدينة فيسبادن سنة ١٩٧٦ ، بعنوان Arabische Handschriften. Materialien zur arabischend Literaturgeschichte . وإننا لا نهدف فى هذا المقال إلا إلى عرض مخطط أولى مجمل ، لذا فإننا لن نتعرض إلى مايحتويه كتابنا من مواد مستقاة من مخطوطات عربية لم تنشر . وموثقة بشواهد وأنساب متممة لها ، وسنكتفى بالإحالة إليها وإثبات ما انتهينا إليه من مادة جديدة بعد صدوره .

(٢) راجع كتابنا حول المخطوطات العربية ١ — ٨١ — ٨٨ والرسم ٥ ؛ وانظر كذلك البحث الممتاز للمستشرق الألمانى H. L. Gottschalk وعنوانه Die Aulad Saih as-suyuh (Banu Hamawiya) فى مجلة Wiener Zeitschrift fuer die Kunde des Morgenlandes ، ٥٣ / ١٩٥٧ / ٨٧ والذى فاتنا — للأسف الاستفادة منه آنذاك ؛ وانظر كذلك مقاله فى دائرة المعارف الإسلامية Encyclopaedia of Islam ١ — ١٩٥٨ — ٧٦٥ ومايليها (مادة : أولاد الشيخ) ؛ وكذلك كتابه al-Malik al-Kamil von Egypten und seine Zeit. Eine Studie zur Geschichte Vorderasiens und Egyptens in der ersten Haelfte des 7./13. Jahrhunderts الصادر فى مدينة فيسبادن ١٩٥٨ ؛ وانظر أيضاً : العلماء بين الحرب والسياسة فى العصر الأيوبى (أسرة شيخ الشيوخ) لحامد زيان غانم ، القاهرة ١٩٧٨ .

رجعنا إلى ابن حجر العسقلانى ، لوجدناه يجهل هؤلاء الإخوة الأربعة ويجهل والدهم ولكنه يعرف أخاه ، أى عمهم يوسف ، الذى كان شيخ شيوخ السميساطية في دمشق ، وتوفى فيها فى ربيع الأول سنة ٧٠١هتشرين الثانى ١٣٠١م . أما جده تاج الدين ، مصنف رسالتنا المذكورة فقد كان تلميذاً للمؤرخ الشيخ ابن عساكر (ت ٥٧١ – ١١٧٦) . ورحل إلى بلاد المغرب فى السابع والعشرين من عمره ، وأقام هناك ست سنين ، كما قدم مصر وعاد إلى مسقط رأسه فى دمشق عام ٦٠٠ – ١٢٠٤ فتولى فيها منصب مفتى المسلمين ، إلى أن توفى فى الخامس من صفر عام ٦٤٢–١٣ تموز ١٢٤٤ ، ودفن فى اليوم التالى بمقبرة الصوفية ظاهر باب النصر ، ولقد كان متأهلا بابنة حفيد حفيد الصوفى الشهير القشيرى (ت ٤٦٥هـ – ١٠٧٢م) .

إن مصنف رسالتنا تاج الدين وأعقابه الذين تلقوا عنه تلك الرسالة ، يشكلون فرعا من عائلة ابن حمويه الجوينى . التى كانت تتوطن شمال إيران ، ثم ارتحلت إلى مصر وبلاد الشام . أما جدهم الأعلى حمويه فهو تبعاً لمخطوطة طهرانية – من سلالة الصحابى أبى أيوب الأنصارى (ت ٥٢-٦٧٢) . وإن ما انتهى إلينا من أعلام تدعى بابن حمويه الجوينى – وعددهم حوالى الثلاثين إلى الآن فهم من أعقاب أولاده الثلاثة : محمد وعلى وعبد الصمد . وإن مصنف رسالتنا تاج الدين لهو من نسل أعقاب الابن الأول الإمام محمد بن حمويه . ولقد ولد محمد هذا فى خركن (جوين) من ضواحى نيسابور فى خراسان وقرأ الفقه والأصول على إمام الحرمين أبى المعالى الجوينى (ت ٤٧٨–١٠٨٥) وبنى خانقاه ببحير آباد إلى جانب داره . وأوقف عليها أوقافا . وتوفى هذا المفسر والمحدث والفقيه ، بعد أن ذاع تصوفه فى الآفاق ، فى الأول من ربيع الأول سنة ٥٣٠ / ٩ كانون الأول ١١٣٥ ، وأعقب عليا ، الذى تسنى له أن يسمع فى مدينة طوس على الإمام الغزالى (ت ٥٠٥ – ١١١١) ، ولما توفى فى نيسابور سنة ٥٣٩ – ١١٤٤ ، نقل جثمانه إلى بحير آباد فى جوين ودفن هناك إلى جوار والده . أما حفيده عمر – أحد أبناء على – فقد رحل إلى دمشق . حيث ولاه الأمير نور الدين زنكى مشيخة الشيوخ ، كما وكله برعاية الأوقاف ، وتوفى عام ٥٧٧ – ١١٨١ وله أربع وستون عاماً وأعقب صدر الدين ومؤلف رسالتنا تاج الدين . ولقد ولد صدر الدين فى جوين عام ٥٤٣ –١١٤٩ وقدم الشام مع والده ، وتأهل فيها للمرة الأولى بابنة الفقيه قطب الدين النيسابورى (ت٥٨٧ – ١١٨٢) ، ثم رحل بعد فترة إلى القاهرة ، حيث درس بمشهد الإمام الحسين بن على وبقبة الإمام الشافعى . ولقد سيره السلطان الأيوبى الكامل (حكم ٦١٥/ ١٢١٨ –٦٣٥ – ١٢٣٨) رسولا إلى بغداد

ليستنجـد بالخليفة العباسى الناصـر (حكم ٥٧٥ / ١١٨٠ — ٦٢٢ / ١٢٢٥) على الإفرنج : عندما استولوا على دمياط وباتوا يهددون دلتا النيل ، ولكنه توفى فى الموصل فى الرابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٦١٧ — ٢٦ آب ١٢٢٠ . ولقد أضحت تربة زوجه فى مقبرة القرافة بالقاهرة المثوى الأخير لأعقابه ، وفيها نجد شتى العلماء ومنهم من بلغ فى ميدان السياسة شأوا بعيداً كفخر الدين يوسف مثلا ، الذى برز شأنه على شأن إخوته الثلاثة ، ولقد ولد فى دمشق سنة ٥٨٢/ ١١٨٦ ، ودرس فيها وفى بغداد وارتفع قدره فى البلاد ، وتقلد أرفع المناصب وخير شاهد لنا على ذلك ، أن السلطان الكامل انتدبه لمفاوضة الإمبراطور الألمانى فريدرك الثانى(حكم ١٢١٢—١٢٥٠).فنجح فخر الدين فى مهمته ، وتوصل معه فى أواخر شباط ١٢٢٩ إلى اتفاق فريد ينظم أمور القدس ومكانتها ولقد حظى فخر الدين بتقدير واحترام الأمبراطور الألمانى — الذى اشتهر بغزارة علمه وأدبه — ويتضح ذلك من المناقشات والمراسلات التى دارت بينهما. ولقد تزعزعت مكانة فخر الدين بموت السلطان الكامل وتولى ابنه الغلام الغرير الظنون مقاليد الحكم فى القاهرة — ولقد تردد السلطان الجديد حينا ، ثم اتهمه بالخيانة العظمى وألقى به فى غياهب السجن، ولكن الفتى الشجاع الوفى(١) تحمل السجن والتعذيب ثلاث سنين بعزم ووقار. ولما عاجل الموت معذبه ، وأطلق سراحه ، تولى قيادة الجيش لقتال الصليبيين على أبواب دمياط والمنصورة (٦٤٧/١٢٤٩—١٢٥٠) . وفى فجر الرابع من ذى القعدة سنة ٦٤٧ / ٨ شباط ١٢٥٠ فاجأ الصليبيون أو بتعبير أدق : جماعة الداوية (الاسبتارية) معسكره وهو فى الحمام ، فركب فرسه وساق لينظم قتالهم ، فحملوا عليه ، وفر مماليكه وأجناده ، وظل الأمير والعالم الشاعر يدافع عن نفسه ، حتى أثخنته الجراح وأودت به السيوف والرماح .

وكان ممن بقى فى جوين من أفراد عائلة ابن حمويه ، الصوفى الشهير وتلميذ نجم الدين الكبرى الشيخ سعد الدين . ولقد نزح إلى أقاربه فى دمشق حينا من الدهر هربا من هجوم التتار ، ولكنه عاد إلى خراسان لما ضاق به الحال ، واجتمع به جماعة من التتار : وتوفى فى عيد الأضحى فى العاشر من ذى الحجة سنة ١١/٦٥٠ شباط ١٢٥٣ ، فدفن فى قبر جد جده محمد . ولقد أعقب صدر الدين إبراهيم ، وكان شيخا صوفياً طال ترحاله ، وتأهل بابنة المؤرخ الفارسى الشهير ووالى التتار علاء الدين الجوينى وأسلم غازان شاه على يده . وتوفى فى العراق فى الخامس من محـرم سنة ٧٢٢ / ٢٤

---

(١) كما دعاه المؤرخون الغربيون : vir strenuus et fidelissimus

كانون الثانى ١٣٢٢ . ولقد وجدنا لذريته بقيةفى خراسان فى القرن العاشر الهجرى١٦م.

حوالى منتصف القرن السابع الهجرى ١٣م تعالى صليل أسلحة المسلمين والصليبيين فى شرقى دلتا النيل ، وسقط الملك الإفرنسى لويس التاسع مع جيشه أسيراً فى أيدى المسلمين بالقرب من المنصورة فى السادس من نيسان سنة ١٢٥٠ . وفى هذا الأوانألقىعصا الترحال فى القاهرة ، فقيه مالكى يدعى بابن أبى جمرة[1] . كان أصله من الأندلس ، وعلى وجه التحديد من مدينة مرسية . حيث أقامت عائلته — كما تفيد المصادر — أكثر من ثلاثة عشر جيلا ، وأخرجت العديد من المحدثين والفقهاء واللغويين . ولعل هزيمة المسلمين فى الأندلس ، فى الشمال الشرقى من قرطبة أدت إلى نزوح عائلته عبر مضيق جبل طارق حيث تابعت طريقها إلى مصر ، إننا لا ندرى ذلك ، ولكننا نعلم أن مدينة مرسية قد سقطت فى أيدى النصارى عام١٢٤١م، وأن نشوة النصر والتعصب الدينى الأعمى دفعهم إلى إحراق المكتبات العامة والخاصة وإهدار مالا يعوض من ذخائر التراث النفيسة ، والوثائق الفريدة حول بلاد أوربا وشعوبها .

لقد عاش ابن أبى جمرة فى القاهرة حياة عالم متعبد متنسك ، وتوافدت عليه الناس شرقا وغربا للانتفاع بعلمه وبركته ، فانقطع فى زاويته يدرس كتب الحديث وفى مقدمتها صحيح البخارى ، حتما بشرحه له المسمى بهجة النفوس وتحليها بما لها وعليها . كما درس غيرها من مصنفاته . ولما توفى ابن أبى جمرة سنة ٦٩٥ — ١٢٩٦ دفن فى زاويته ، التى لا تزال قائمة ومعروفة إلى يومنا هذا ، وهى تقع حذاء الجبل المقطم على طرف القرافة ، وبالقرب من مدفن المؤرخ ابن سيد الناس (ت ٧٣٤ / ١٣٣٤) الذى جرى ترميمه فى السنوات الأخيرة بعد أن نالت منه معاول السنين .

إن حوش ابن أبى جمرة لعلى شكل مستطيل محاط بجدار منخفض ، يقارب طول ضلعه الأمامى عشرة أمتار ، والجانبى خمسة عشر متراً ، وهو لا يخلو من قبور قريبة العهد . أما ضريح الشيخ فهو إزاء ضلعه الخلفى ويشكل قبة مربعة القاعدة ، طول ضلعها أربعة أمتار تقريبا ، وينخفض مدخل القبر نفسه عدة درجات عن ثرى الحوش ، مما يدل على ارتفاع الثرى على كر الدهور . ولا غرو فى ذلك ، فكتب التراجم العربية تفيد أن الحوش قد وارى بعضا من ذرية الشيخ ومن المعتقدين بكراماته ، ومن المترددين على مقامه للبركة والدعاء وتلاوة القرآن أيام الجمع والأعياد . ولقد طمر التراب زاويته ، فلم يعد يبدو منها ومن محرابها سوى القسم الأعلى المدبب الرشيق . والحوش

(١) راجع كتابنا حول المخطوطات العربية ١ / ٦٣ — ٦٩ وكذلك الرسم ٤

إجمالا مرتب ونظيف ، فإما هبطنا إلى قبر الشيخ ، رأينا مقامه خلف الباب ، يجلله غطاء حريرى أخضر ، طرزت عليه الكلمات التالية ؛ هذا مقام سيدى عبد الله بن أبى جمرة الأندلسى سلطان المشرق والمغرب المتوفى ٦٩٩هـ (والصحيح ٦٩٥/١٢٩٦) . وقد يتساءل المرء فى عجب ودهشة ، كيف تمكن هذا الحوش المتواضع المبنى من حجر وطين أن يصمد لمعاول الفناء طوال سبعة قرون . والجواب عن ذلك يكمن فى طبيعة المصرى وإجلاله لحرمة الماضى ، ولكن ليس ذلك فحسب ، فلقد كان شيخنا فى اعتقاد الناس ولياً من أولياء الله ، كما بزغ من أسلافه عديد من الفقهاء والقضاة ، وبوسعنا أن نتتبع أخبارهم إلى عهدهم فى مدينة مرسية ، وقبلها إلى مدينة دمشق ، حيث كان أحدهم ، وهو عبد الجبار ، مولى للخليفة الأموى مروان (حكم ٦٤/٦٨٤ — ٦٥—٦٨٥هـ) بل وإننا لنعرف جده الذى عاصر النبى صلى الله عليه وسلم . ويبدو أن ذرية الشيخ قد تتابعت عن طريق ابنته الشيخة الصالحة أم الخير ، والتى دفنت فى حوشه ، كما دفن فيه آخرون . ومنهم من كان من أعيان القاهرة وإن كتب تراجم القرن العاشر الهجرى - ١٦م لم تغفل عن ذكر من دعى بابن أبى جمرة من معاصريها . وإن الحوش(١) الذى ارتفع ثراه ، كما ذكرنا ، متراً ونصفا تقريباً ، ليطمر فى حناياه كثيراً من أحجار القبور ، ولكن من سيزعج الموتى فى قبورهم ليحصل على بضع من أسماء الأعلام وطرف من أخبارهم .

إن تقييد تملك لمحمد بن أحمد بن محمد ابن عثمان بن المنتجا(٢) على وجه مخطوطة نفيسة

---

(١) حوش ابن أبى جمرة مذكور فى الخرائط القاهرية :
Index to Mohammedan Monuments,appearing on the special 1 : 5000 scale maps of Cairo الصادرة فى القاهرة سنة ١٩٥١ ، خريطة ٢ ك ١٣ ؛ وكذلك لدى Louis Massignon فى مقاله La cité des morts au Caire (Qarafa-Darb al-Ahmar) المنشور فى مجلة المعهد الإفرنسى للآثار الشرقية Bulletin de L'Institut Francais d'Archélogie Orientale ٥٧/١٩٥٨/ ٢٥ – ٧٩ لوحة ١ ، Opera minora ١ – ٣ ، بيروت ١٩٦٣ ، وذلك فى ٣/٣٣٣–٢٨٥ لوحة (١٧) .
لقد قصدت وصديقى الأستاذ الدكتور رمضان عبد التواب هذا الحوش فى ١٦ آذار ١٩٧٨ واهتدينا إليه دون عناء ، بمساعدة قيم جامع الإمام الشافعى . ومما يستحق الذكر لدلالته الكبيرة فى سياق مقالنا ، أننا سألنا القيم أولا عن موضع قبر المؤرخ ابن سيد الناس ، فلم يعرفه ، بل قال بأنه يعرف مثلا : قبر ابن عطاء الله السكندرى وابن الهمام وابن أبى جمرة . أى بتعبير آخر : قبور الأولياء .

(٢) راجع كتابنا حول المخطوطات العربية ١ / ٥٤ – ٦١ وكذلك الرسم ٣ ؛ وقارن مقال J. E. Gilbert وعنوانه Institutionalization of Muslim scholarship and Professionalization of the ulama in medieval Damascus الصادر فى مجلة Studia Islameica ٥٢ / ١٩٨٠ / ٦٧ – ٨٨ .

مؤرخة فى عام ٥٨٠ / ١١٨٤ ، يسوقنا إلى مدينة من أقدم مدن التاريخ وجنة تجرى فيها المياه العذبة النميرة ، إلى مدينة دمشق فى غضون القرن الثامن الهجرى — ١٤ م . أما مالك المخطوطة فكان — كما يفيدنا ابن حجر العسقلانى (ت ٨٥٢ / ١٤٤٩) — من أعيان دمشق وناظراً للجامع الأموى . وكان فى حورته خزانة غنية بكتب مدونة بخط مصنفيها ، لم يضن على الناس بها ، وخصوصاً على العلماء . وهكذا فقد نظر فيها ابن حجر العسقلانى عندما تلقى العلم فى دمشق على يد العالمة أم الحسن فاطمة ابنة مالك مخطوطتنا ابن المنجا (ت ٨٠٣ / ١٤٠٠) . وإننا نكاد نعرف خمسين فرداً من عائلة العلماء أبناء المنجا منذ أواخر القرن السادس إلى القرن العاشر

الهجرى — ١٢ — ١٦ م ؛ ومن بينهم تسع نساء — عدا أم الحسن المذكورة — عُرفن بتدريسهن أو بروايتهن للتراث أو لحضورهن حلقات العلم . ولا غرابة فى هذا الأمر . فكلنا يدرك قيمة العلم فى الإسلام . ويعى قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة »(١) ولقد أخرجت عائلة ابن المنجا كثيراً من القضاة الحنابلة وقضاة القضاة ، والأساتذة وشيوخ الطريقة ؛ ومن التجار وموظفى الدولة ؛ واختصت بتربة بظاهر مدينة دمشق فى الصالحية على سفح جبل قاسيون وراء جامع المظفرى : ولعل الأيام تظهر هذه التربة المندرسة . أو جزءا من بقاياها على الأقل . ولقد كان فى الجامع

---

(١) لايزال هذا الحديث منقوشاً فوق مدخل المدرسة التى بناها ألغ بك فى بخارى سنة ٨٢٠ / ١٤١٧ ، وكان مشجعاً العلم والفنون وحفيداً لغازى العالم تيمورلنك وانظر من أجل هذا الحديث ٣ : سنن ابن ماجة ١ — ٢ ، القاهرة ١٣٧٢ / ١٩٥٢ — ١٣٧٣ / ١٩٥٣ ، رقم ٢٢٤ ؛ الرحلة فى طلب الحديث للخطيب البغدادى ، بيروت ١٣٩٥ / ١٩٧٥ ، ص ٧٢ ومايليها؛ وكتاب Muhammedanische Studien للمستشرق الكبير I. Goldziher ، الصادر فى جزئين فى مدينة Halle/Saale ١٨٨٩ — ١٨٩٠ ، ٢/٣٠٥ حاشية ٥ ، وكذلك مقال Abdul ali وعنوانه The inspiration Islam gave to cultivation of knowledge and learning فى مجلة Islamic Culture ٥٣ / ١٩٧٩ / ١٧٩ — ١٨٦ . وانظر من أجل عالمات الإسلام . ،مقال A. Nègre وعنوانه Les femmes savantes chez Dahabi فى مجلة Bulletin d'Etudes Orientales ١٩٧٨/٣٠ (١٩٨٠) / ٧٥–٨٣ ؛ وكذلك كتاب Wiebke Walther وعنوانه Die Frau im Islam الصادر فى ليبزج ١٩٨٠ . وراجع من أجل ألغ بك محاضرتنا وعنوانها Licht aus dem Orient. Morgenlaendische Skizzen vor abendlaendischem Hintergrund والتى طبعت فى كتاب Araber und Deutsche. Begegnugen in einem Jahrtausend بإعداد F. H. Kochwasser و H. R. Reomer فى مدينتى توبنجن وبازل ١٩٧٤ ، ص ٥٣ = نور من الشرق . رسوم شرقية على خلفية غربية . فى كتاب ألمانيا والعالم العربى ، ترجمة مصطفى ماهر وكمال رضوان ، بيروت ١٩٧٤ ، ص ٦٠ ومايليها .

الأموى زاوية تدعى بالمنجائية نسبة إلى موقفها ، وهو أحد أعمام والد الشيخ محمد ، مالك مخطوطتنا المذكور وكان متضلعاً بعلوم الدين . ولقد فتح بعض أفراد هذه العائلة بيوتهم أجيالا عديدة لخدمة التحصيل وتدريس القرآن والحديث والفقه وغيرها من العلوم . كما كان لهم فضل إنشاء حمام عمومى وجامع فى مدينة دمشق . ولا غرابة فى هذا كله ، فما هذه العائلة إلا حلقه فى سلسلة تقاليد الأوقاف الإسلامية العريقة ، التى تستحق منا الإكبار والإجلال . .

ولننتقل الآن إلى الحديث عن عائلة أخرى ولتكن عائلة ابن البيلونى[1]. بعد أن فتح العثمانيون القسطنطينية عام ١٤٥٣م ،واتخذوها عاصمة لإمبراطوريتهم المتوسعة فى جميع الجهات ، شرعت جحافلهم تزحف شرقاً ، متخطية حدود البحر الأسود ، وناشرة القلق فى تلك المناطق الممتدة حتى بحر الخزر (قزوين) ، ولقد جرّ هذا على سكان البلاد شدة وضيقاً جديدا ، بعد أن عانوا طويلا من الغزوات المتكررة ، التى قامت بها جيوش تيمورلنك (ت ١٤٠٥ م) .وهكذا فقد فضل بعضهم النزوح عن وطنه الجميل فى مرتفعات القفقاس الشرقية ، والبحث عن وطن جديد يسوده الهدوء والأمان . وكان بين النازحين غرباً صبى يدعى ابن البيلونى ، استقرت عائلته فى مدينة حلب ، وكتب له أن تتجاوز شهرته العلمية يوماً حدود بلده الجديد . كان والده شيخا حافظاً ، ولكننا لم نعثر له على أثر فى كتب التراجم . أما اسم عائلته ، فلعله يعود إلى جد كان يصنع ويبيع البيلون[2]— وهو الصابون— فى وطنه باب الأبواب (دربند) فى داغستان لقد حظى الصبى ابن البيلونى بتلقى العلوم الإسلامية على يد كبار عصره فى حلب ومكة ، وبتزيين ثبته بأسمائهم وإجازاتهم بخطوطهم . وغالباً ما حصل على تقييدات شخصية عن سيرتهم وسيرة أساتذتهم وشيوخهم ؛ وهذا فخر وشرف له . وزاد فيه رفعة إلباسه طاقية الصوفيين ومصافحته بعد سماعه الحديث المسلسل بالمصافحة وبلباس الخرقة . وهكذا شب الصبى اللاجىء وغدا شيخاً متضلعاً فى شتى مجالات العلوم الإسلامية . ولما توفى سنة ٩٢٩ / ١٥٢٣ ، صلى عليه الإمام زين الدين الشماع ، وحدث أن سمع بعد دفنه جماعة مع الشيخ الكيزوانى يقرأون على قبره شيئاً من النظم ، فشاط به الغضب لهذه البدعة .

ولقد خلف ابن البيلونى ولدين سماهما محمداً على اسمه ، باختلاف فى الكنية — وليس هذا بغريب ، فإننا نجده لدى عوائل أخرى— وكذلك بنتاً اسمها خديجة (ت ٩٣٠/

---

(١) انظر كتابنا حول المخطوطات العربية ١ / ١٩٢ — ١٩٥ وكذلك الرسم ١٢

(٢) لعل أصلها الكلمة اليونانية balaneion ومعناها : الاغتسال بماء حار وحمام عمومى .

١٥٢٤) ؛ فساروا جميعاً على نهج والدهم ، ونالوا نصيبهم من الشهرة والتقدير فى مدينة حلب . ولقد حظى أكبر ولديه أبو البركات بإجلال قاضيها له ، كما كان يدرس أحياناً بعض شخصيات المجتمع العامة ، وتوفى فى منبج عام ٩٣٥هـ/١٥٢٩م قبل بلوغ الأربعين من عمره . أما أصغرهما أبو اليسر إمام الحجازية بالجامع الأموى فى حلب فكان غاية فى التواضع خلقاً ومظهراً ، وكان لا يترفع عن عمل مهما كان ، بل يقدم على حمل أطباق العجين إلى الخباز على عاتقه ، ومات مطعوناً سنة ٩٦٢/ ١٥٥٥ . وكان فى حياته قد احتضن ابن أخيه محموداً (ولد ٩٣٣ / ١٥٢٦) بعد أن عاجلت المنية والده واهتم بتربيته وتعليمه ، وهكذا حفظ الصبى القرآن جرياً على تقاليد ذاك الأوان ، ثم لازم تلميذ والده المؤرخ والمترجم الشيخ رضى الدين ابن الحنبلى ، وقرأ عليه الكتب المدرسية المعهودة آنذاك فى الصرف والنحو والبلاغة والقراءات والفقه والمنطق والحديث كما قرأ رسائل فى الأخلاق والنجوم والرياضيات وإلى ما هنالك ، وكذلك أشعار شيخه ومؤلفاته. وأجاز له شيخه رواية جميع ما تجوز له وعنه روايته . ولقد جد محمود فى طلب مزيد من الإجازات من علماء حلب ، ومن شيوخ دمشق والقاهرة ومكة عند تأديته لفريضة الحج . وغدا شيخاً لا يستهان بعلمه . ولما ثقل سمعه وضعف بصره ، تخلى عن وظائفه وانقطع فى منارة ، لم يكن يغادرها إلا للاغتسال ، ولكنه كان يحرص على الاشتغال بمصالح عياله ، بل وحماية الحمام فى صومعته بكف الجوارح عنها . وكان الناس يثنون عليه وينسبون إليه الصلاح . وتوفى فى الثالث والسبعين من عمره فى القاهرة حيث أتاها فى طريقه إلى الحج . فدفن فى آخر شوال عام ١٠٠٦هـ — ٤ حزيران ١٥٩٨م بالمقبرة المعروفة بالقرافة بالقرب من الجامع الأزهر عند مدفن شيوخه — المحبرين له . وبهذه المناسبة ، فلقد وصلت إلينا مخطوطة صغيرة بخط يده ، محفوظة فى مكتبة برلين ، فيها تراجم جده وأبيه وعمه وعمته الشيخة الصالحة القارئة والمتفقهة خديجة (ت ٩٣٠ — ١٥٢٤) ، وكذلك ترجمته إلى العقد الرابع من عمره[١] وهى جميعها منقولة من كتاب در الحبب فى تاريخ أعيان

(١) لقد حققنا نص المخطوطة ونشرناه بعنوان Die Gelehrtenfamilie Ibn am-Bailunt فى الكتاب التذكارى Die islamiche Welt zwischen Mittelalter und Neu- zeit. Festschrift fuer H. R. Roemer zum 65 Geburtstag باعداد U. Haarmann و P. Bachmann فى مدينة بيروت ١٩٧٩ ، ص ٥٦٢ — ٥٨٢ . ومن أجل ما دونه التاجر الألمانى الذى قضى سبع سنين فى مدينة حلب ، كما عهدها أبناء البيلونى ، انظر كتاب A. Tietze وعنوانه Sieben Jahre in Aleppo (1656-1663), ein Abschnitt aus den "Reiss-Beschreibungen" des Wolfgang Aigen صدر فى فيينا ١٩٨٠ ، سلسلة Beihefte zur Wiener Zeitschrift fure die Kunde des Morgenlandes .

حلب لشيخه رضى الدين ابن الحنبلى (ت ٩٧١ ١٥٦٣) . ولقد أضاف ابنه الفقيه محمد فتح الله (ت ١٠٤٢ — ١٦٣٢) ، أشهر أبناء البيلونى فى جيله ، حاشية إلى ترجمة والده فى هذه الوثيقة الصغيرة . ولقد أنجب الفقيه ولداً سماه محمداً (ت ١٠٨٥ — ١٦٧٤) وصار قاضياً مثله ، وهو الذى ندين له فى أوروبا بفضل معرفتنا المبكرة لكتاب تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار لمصنفه الرحالة ابن بطوطة الطنجى (ت ٧٧٩ — ١٣٧٧) . فلقد وصل إلينا مختصره لذلك الكتاب ، فترجم إلى الإنكليزية فى لندن سنة ١٨٢٩ م . وأخيراً فقد انتهى إلى سمعنا ، أنه لا يزال فى مدينة حلب قوم يدعون بابن البيلونى ، ولا شك أنهم من أعقاب هذه العائلة الكبيرة .

لقد برز أبناء البيلونى — كما رأينا — من غيب التاريخ فى غضون القرن التاسع الهجرى وكذلك برز أبناء القوصونى[١] ، ولكن ليس فى باب الأبواب (دربند) على ضفاف بحر الخزر (قزوين) ، بل فى القاهرة على ضفاف النيل . ففيها عاش الطبيب عبد الوهاب ابن صدقة (ت ٨٣٥ / ١٤٣١) المدعو بالقوصونى نسبة إلى جامع قوصون[٢] . فلعله كان يقيم فى حيه . وتفيد المراجع أن عبد الوهاب قد أعقب من زوجه . وهى أخت رئيس الجراحة فى القاهرة جمال الدين بن عبد الحق (ت ٨٩١ / ١٤٨٦) .

ورغم وفاته المبكرة فقد نال ابنه محمد قسطاً وافراً من العلم ، ودرس الطب ، فحذق فى ممارسة هذه الصناعة ، وحمد الناس علمه وعلاجه ، فاشتهر وانتبه البلاط إليه ، فاتخذه السلطان الأشرف قانصوه الغورى (حكم ٩٠٦ / ١٥٠١ — ٩٢٢ / ١٥١٦) طبيباً خاصاً له . ولقد حفظ لنا الدهر من مؤلفاته الطبية مخطوطة فاخرة فى السموم . كتبها لخزانة السلطان عام ٩١٢ — ١٥٠٦ ، وهى الآن فى حوزة دار الكتب الوطنية فى القاهرة وتوفى محمد فى السابع عشر من ربيع الأول سنة ٩١٧ — ١٤ حزيران ١٥١١ ، وهو فى الحادى والسبعين من عمره ، وخلف ولداً خلفه اسما وصناعة ، ولم يقصر عنه علماً ومكانة ، كما جمع — تبعاً للمصادر — بين حسن الشكل والخلق والنباهة والفصاحة . ولقد أسره العثمانيون مع أتباع السلطان الأشرف قانصوه الغورى بعد موقعة حلب ، فتمكن من الهرب . وعفا عنه السلطان العثمانى سليم الأول (حكم ٩١٨ / ١٥١٢—٩٢٦ / ١٥٢٠) فى معسكره

(١) انظر كتابنا حول المخطوطات العربية ١ / ٢٠٢ — ٢١٣ وكذلك الرسم ١٣

(٢) راجع كتاب Aegypten und der Sudan. Handbuch fuer Reisende لمصنفه K. Baedeker صدر فى مدينة ليبزج . ١٩٢٨ (ط ٨) ص ٦٥ لقد بنى هذا الجامع القائم إلى يومنا هذا سنة ٧٣٠ / ١٣٣٠) . بأمر الأمير سيف الدين قوصون بن عبد الله الساقى الناصرى (قتل ٧٤٢ / ١٣٤٢) وكان أمير الألف وزوج ابنة السلطان محمد الناصر (حكم ٧٠٩ — ١٣١٠ — ٧٤١ — ١٣٤١) .

فى مصر فى الرابع عشر من ذى الحجة عام ٨/٩٢٢ كانون الثانى ١٥١٧ ، أى قبل فتح القاهرة بثلاثة أسابيع تقريباً ، فى الثامن من محرم سنة ٩٢٣ / ٣١ كانون الثانى ١٥١٧ ومن المعروف أن السلطان سليم الأول قد غادر القاهرة بعد ثمانية أشهر عائداً إلى القسطنطينية ، ومصطحبا لكثير من العلماء والإداريين والمعماريين وأصحاب المهن اليدوية . ولا بد أن صاحبنا محملاً القوصونى كان فى عدادهم ، فلقد وجدنا تقييداً له يدل على تملكه لإحدى المخطوطات الأدبية ، مؤرخاً فى الديار التركية سنة ١٥١٨/٩٢٤ . كما أن التقرير الطبى لوفاة السلطان الخالد سليم الأول يتضمن توقيعه المؤرخ فى التاسع من شوال سنة ٢٢/٩٢٦ أيلول ١٥٢٠ . ويبدو أن السلطان سليمان القانونى ، الذى خلف سليم الأول على عرش السلطنة العثمانية ، قد أذن لمحمد القوصونى بالعودة إلى وطنه . ومهما يكن فقد توفى صاحبنا فى مدينة رشيد فى الحادى عشر من صفر سنة ٩٣١ / ٨ كانون الأول ١٥٢٤ .

ولقد نهج ابنه محمد سبيل والده وجده فى ممارسة صناعة الطب وبلغتنا عن حياته أخبار موثوقة ، كتبها زميل له كان على صلة به ودارت بينهما مراسلات وملاطفات ، كما وصلت إلينا تسعة كتب من مصنفاته العلمية .

ولقد ولد ثالث المحمدين هذا فى القاهرة سنة ٩٢٠ / ١٥١٤ ، وفقد والده وهو ابن عشر سنين ، ولكنه كان ذكياً مجداً فى طلب العلم ؛ فلا غرو أن غدا طبيباً تلهج ألسنة الناس بذكره والثناء عليه . ولما بلغ الرابع والثلاثين من عمره ، استدعى لمعالجة الأمير بايزيد ، والى قرمان فى الأناضول ، فذهب إليه — حتماً إلى مقره فى قونية — ووفق فى علاجه ، فطلبه والد الأمير السلطان العثمانى الشهير سليمان (حكم ٩٢٦ / ١٥٢٠ — ٩٧٤ / ١٥٦٦) فى العام التالى — وكان فى حملة ضد بلاد الفرس — ليعالجه من النقرس ، وعزل لأجله طبيبه اليهودى هامون زاده ، وجعله مكانه . ولاشك أنه قد رافق السلطان إلى القسطنطينية بعد انتهاء حملته فى أواخر سنة ٩٥٦ / ١٥٤٩ ، إذ لما جاء مترجمه وزميله من عهده القاهرى إلى عاصمة العثمانيين للمرة الثانية سنة ٩٦٥ / ١٥٥٦ ، اجتمع به وأخبرنا فى ترجمته ، أنه رآه فى عظمة وجاه ، متولياً رئاسة الحكماء ؛ وقد سأل فى الحج مراراً ، فلم يأذن له السلطان ، لأنه بات لايصبر عنه ساعة واحدة ولما توفى السلطان سليمان ، عظمه السلطان سليم الثانى (حكم ٩٧٤ / ١٥٦٦ — ٩٨٢ / ١٥٧٤) من بعده ، ولم يقو على فراقه أيضاً . ولكن قيسونى زاده — اسمه بالتركية — توفى بعد سنتين ، وهو فى الرابع والخمسين من عمره . وذلك فى صفر عام ٩٧٦ / تموز ١٥٦٨ .

ومن بين أعيان القرن الحادى عشر الهجرى / ١٧ م تطالعنا أسماء ثلاثة علماء

يدعون بالقوصونى ، كان أحدهم أكبر أطباء القاهرة ، ولقد وصل إلينا من خزانته العديد من المخطوطات التى خطها بيده ، ولكن لاسبيل لنا لتبين أسباب قرابتهم .

لن نتمكن فى نطاق هذا المقال من الحديث عن عائلة المحبوبى[١] ، التى أظهرت العديد من فقهاء الحنفية ، ولعبت دوراً هاماً فى بخارى بين القرن السادس والثامن الهجرى — ١٢ — ١٤ م ، وذكرت أخبارها الوثيقة وأنسابها العريقة فى تاريخ مقبرة مدينة بخارى مثلا ، والذى دُوّن فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى — ١٥ م . ولن نتمكن كذلك من الحديث عن عائلة الأستروشنى [٢] ، والتى تطالعنا مثلا فى مدرسة قلعة زندنه فى شمال بخارى أو عن عائلة الحمصى الرازى [٣] فى القرنين السابع والثامن الهجرى — ١٣ — ١٤ م . وأصلها من الرى — وتدعى اليوم بطهران — وبرزت لدى الإلخانيين فى السلطانية ، أو عن عائلة التركمانى [٤] التى بزغ منها العديد من الرياضيين والفلكيين فى القاهرة ، وكذلك فى مدينة سراى عاصمة خانات آلتون أوردو ، والتى تقع على ذراع من نهر الفولجا بالقرب من البحر الأسود (بالقرب من المدينة المعاصرة فولجوجراد) ؛ أو عن عائلة ابن الوردى [٥] ، وأصلها من معرة النعمان فى الشام ، وتطالعنا فى القرن الثامن والتاسع الهجرى / ١٤ — ١٥م فى مدينة حلب بصورة رئيسية ؛ ولكننا نود أن نتعرض أخيراً لعائلة ابن الفنارى[٦] المتفرعة .

لقد عاش أبناء الفنارى فى ظلال العثمانيين فى مدينتى بروسه والقسطنطينية وغيرهما ، وإننا لانعلم أصلهم علم اليقين ، فبعض المصادر التركية المتأخرة تنص على قدومهم من بلاد ماوراء النهر ، وعلى نسبتهم إلى مكان هناك — لانجد له أثراً فى المراجع — أو إلى قرية مزعزمة بالقرب من مدينة بروسه . وتفيد بعض النصوص العربية المتقدمة ، أن أقدم أفراد العائلة — واسمه حمزة — كان يصنع الفنارات[٧] ، وأنه أهدى فناراً لملك الروم — أى للسلطان العثمانى — فلقب بعدها بالفنارى . أما ابنه شمس الدين محمد (ولد ٧٥١ —

(١) راجع كتابنا حول المخطوطات العربية ١ — ١١٤ — ١٢٥ وكذلك الرسم ٧
(٢) راجع كتابنا المذكور ١ / ١٣٠ — ١٣٤ وكذلك الرسم ٨
(٣) راجع كتابنا المذكور ١ / ١٤٠ — ١٤٧ — وكذلك الرسم ٩
(٤) راجع كتابنا المذكور ١ / ١٦٩ — ١٧١ وكذلك الرسم ١٠
(٥) راجع كتابنا المذكور ١ / ١٧٦ — ١٨٦ وكذلك الرسم ١١
(٦) راجع كتابنا المذكور ١ / ٣٢٢ — ٣٣٢ وكذلك الرسم ١٨
(٧) الفنار : من الكلمة اليونانية Phanarion .

١٣٥٠م) — أى ابن الفنارى — فقد حصل العلم فى الأناضول وفى مصر ، وعاش فى مدينة بروسه ، واشتهر بفتاويه ، فلم يتوان السلطان العثمانى بايزيد (حكم ٧٩١— ١٣٨٩— ٨٠٥ — ١٤٠٣) — وكان يكبره بثلاث سنوات — عن الاستعانه برأيه فى عاصمته بروسه(١) ، كما استدعاه سلطان مصر المؤيد (حكم ٨١٥ — ١٤١٢— ٨٢٤— ١٤٢١) ليناظر جمعا من علماء القاهرة . ولقد در كل هذا الشرف على الشيخ الشهير أموالا جمة ، ولكنه أدى إلى انشغاله عن كتابة ماكان يطمح إليه ، فخلف فى خزانته الحافلة بما ينوف عن عشرة آلاف مجلد ، العديد من كتب الفقه والمنطق والبلاغة والعقائد ، ولم يتسن له إتمام تصنيفه . وكان من عادته أن يجود على عبيده وخدمه بأفخر أنواع الملابس والفراء ، وأن يتواضع فى لباسه وطعامه وشرابه ، كما كان يصر على كسب عيشه بعرق جبينه ، ليبقى حراً لاتأخذه فى قول الحق — ولو للسلطان — لومة لائم ، ولكن ضيق وقته لم يتح له مجالا واسعاً للتكسب من تجارته فى بيع الحرير . ولقد توفى بعد عودته من الحج عام ٨٣٤ — ١٤٣١ ، ودفن فى بروسه إزاء الجامع الذى بناه له السلطان . كما دفن هناك من بعده العديد من أفراد ذريته وآخرهم — على قدر علمنا — إبراهيم أفندى والذى دفن عام ١١٣١ / ١٧١٨ حذاء شاه محمد (ت ١٠٥١ / ١٦٤١) ، وهو عقب حفيد حفيد ابن الفنارى ، وكان شيخاً درس فى مدارس متعددة فى بروسه والقسطنطينية ومغنيسية ، وقاضياً فى قونية وصوفية والمدينة المنورة ومن ثم فى بروسه . ولقد اتخذت عائلة ابن الفنارى منذ وفاة ابن حفيده محمد مدفنا ثانياً فى القسطنطينية جوار جامع أبى أيوب الأنصارى (ت ٥٢ / ٦٧٢) . ولقد انتهى محمد المذكور (ت ٩٥٤/ ١٥٤٧) إلى منصب شيخ الإسلام ، وهى أعلى مرتبة دون وزير الوزراء ، وحباه عدله بإجلال وتقدير الجميع فى الدولة العثمانية وهى فى أوج توسعها وعظمتها . كما اشتغل بالعلم وخلد اسمه فى شروحه لكتب الفقه والبلاغة وغيرها . أما أخوه الأكبر محمد شاه (ت ٩٢٩/ ١٥٢٢) فقد حظى منذ ولادته بمنحة شرف من الدولة كرامة لأبيه الشيخ الجواب وقاضى العسكر علاء الدين على (ت ٩٠٣ / ١٤٩٧) ، ولم تذهب هذه النعمة سدى ، فقد غدا محمد شيخاً وقاضياً فى بروسه والقسطنطينية وأدرنة ، وقاضياً بالعسكر فى البلاد العربية والأناضول والولايات التركية فى أوربا كل هذا رغم قصر أجله ، فقد توفى وهو فى السادس والأربعين من عمره — . ودفن فى تربة والد جده ابن الفنارى فى بروسه . ولقد تزوجت ابنة عمهما بأمير بحر تمركز

(١) لقد اتخذ العثمانيون من القسطنطينية عاصمة لهم بعد فتحها سنة ١٤٥٣ م .

بأسطوله فى الميناء الشهير جليبولى ، وأنجبت عبيد الله ، الذى ساقته الأقدار إلى منصب القضاء فى مدينة حلب . ولما توفى سنة ٩٣٦/ ١٥٢٩ خلف وراءه خزانة عامرة . ولقد ضم أحد أقاربه قسما منها إلى مكتبات بعض أبناء الفنارى ، أو إلى أجزاء منها ، ووهبها لابن أخيه عندما فجع بوالديه فى صغره وإننا لا نعلم مصير هذا الصبى ولا مصير أبناء الفنارى الأخر ، فكتب التراجم بدأت تضمحل فى ذاك الزمان . ولقد حان الأوان للتنقيب فى سجلات البلاد الإسلامية الحافلة لاستنطاقها عن أخبار جديدة حول هذه العائلة وأمثالها من عوائل الأعيان(١) .

لقد استللنا ما ذكرناه من محيط شاسع لا يسبر غوره ، ونضضناه فجاء عرضاً موجزاً لسير بعض العوائل الإسلامية ، ومعبراً عن شتى اللونيات التاريخية — الحضارية . ولا شك أن بوسعنا تعميم هذه الملاحظات والأقوال فى كثير من نواحيها . ولنأخذ مثالا للتدليل على ذلك ، وليكن عائلة ابن حمويه الجوينى فلقد رأينا أن رسالة تاج الدين فى الخرقة الصوفية قد تدارستها العائلة رجالا ونساء وأولاداً جيلا بعد جيل . وهذا لم يكن استثناء نادراً ، بل كان شائعاً فى البلاد الإسلامية فى العصور الوسطى ، وهو يوضح نظرة الناس الفريدة إلى التراث ، وموقفهم من كتبه الدينية ، فى مثالنا هذا ، كما يجلو للناظر أن التحصيل لم يكن وقفاً على طائفة من العلماء ، بل كان يعم طبقات الناس المختلفة ، تبعا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « اطلبوا العلم ولو بالصين »(٢) .

كما يبين للناظر من جانب آخر ، أن هذا التحصيل كان ادخاريا — أو بتعبير آخر — ساكناً محافظا ، وتشتد هذه الملاحظة كلما اقتربنا من العصور الحديثة ، حيث يزداد التخصص ، وتضيق مناهج التعليم . وأبلغ دليل ملحوظ على ذلك هو الإفراط فى تصنيف الشروح وشروح الشروح والحواشى ومع أن هذه المصنفات تحلى رغم إسهابها بمستوى رفيع فى المناظرات العلمية ، وتنم عن حدة فى النظر ، ودقة فى الكشف عن اللونيات المختلفة فى العلوم الأساسية كالنحو ، والبلاغة مثلا . فإن القارئ يستشف منها ضياع الكلية ، وفقدان طاقة الابتداع والتغيير الحيوية . ولقد أدى ذلك كله إلى سبر التحصيل فى جميع المعاهد المنتشرة وفق نظام مدرسى ضيق ، وإلى شيوع الملخصات والمبسطات واحتلالها مكان الصدارة فى برامج التعليم .

---

(١) قارن مثلا سلسلة الوثائق التى تنشرها الجمعية التاريخية التركية فى مجلتها الصادرة فى أنقرة Belgeler, Tiurk Tarih Belgeler Dergisi وأحدثها المجلد ١٠ ، العدد ١٢ / ١٩٨١ وفيه : Halil Inalcik, Osmanli dare, Sosyal ve Ekonomik Tarihiyle Ilgili Belgeler : Buras Kadi Sicillerinden Secmeler ؛ وكذلك مجلد الوثائق الذى نشره حديثاً محمد محمد أمين فى القاهرة ١٩٨١ بعنوان : فهرست وثائق القاهرة حتى نهاية عصر سلاطين المماليك (٢٣٩ – ٩٢٢ هـ / ٨٥٣ – ١٥١٦ م) مع نشر وتحقيق تسعة نماذج ، (المعهد العلمى الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة) .

(٢) راجع الحديث فى كتاب الرحلة فى طلب الحديث للخطيب البغدادى ، ص ٧٢ وما يليها ؛ وانظر كتاب Das meer der seele. mensch, welt und gott in den Geschichten des Fariduddin Attar لمصنفه المستشرق الألمانى الكبير Hellmut Ritter صدر فى مدينة ليدن ١٩٧٨ (ط ٢) ، ص ٢٨٤

ولقد ساعدت الدولة العثمانية بشعوبها المتعددة وبإدارتها المهيمنة على تأصيل هذا الوضع ، لأنها كانت تحرص بالدرجة الأولى على سرعة تخرج المتعلمين ، لتوظيفهم فى مرافق الدولة ، ونقلهم من مكان إلى آخر تبعاً للحاجة — ألسنا نعانى من هذه المشاكل فى عهدنا ومجتمعنا الحاضر ؟ وكمثال على هذا التطور يمكننا أن نشير إلى عائلة العلماء أبناء الفنارى ابتداء من القرن التاسع الهجرى — ١٥ م ، فتثبت [مؤلفاتهم لا يحتوى إلا على شروح وحواش . لقد كانوا فى عصرهم أساتذة معروفين درّسوا فى شتى المعاهد العلمية فى بروسة والقسطنطينية وغيرهما ، كما شغلوا مناصب عالية ، وتمتعوا بمكانة مرموقة فى البلاط ، ومنهم من كان موظفاً جليلا فى عاصمة الدولة وولاياتها ، وكم أطلقت أسماؤهم على جوامع ومدارس ، وكم حفظتها أوقاف ومقابر إلى يومنا هذا ، أو قبيلته ، وكم وصلت إلينا مخطوطات بخطهم أو من خزائنهم تحمل أسماءهم ... وكلهم شهود على حيوية ذلك الماضى وعظمته . ومع ذلك فهناك من عاش فى ذاك الزمان . وبث شكواه وألمه منه ، فها هو مثلا الشيخ على منق (ت ٩٩٢ / ١٩٨٢) — أحد مذيلى كتاب الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية لطاشكبرى زاده (ت ٩٦٨ –١٥٦١) — يقول فى ذيله المعنون بالعقد المنظوم فى ذكر أفاضل الروم ، مشيراً إلى الشيوخ الذين عرفهم فى حياتهم وترجم لهم : « ويا عجباً من هذه البحور كيف وسعها أصداف القبور ... ولعمرى إن ذلك [يعنى تصنيفه واشتغاله بالعلم] يعد عند الأكثرين من تضييع الأوقات لأن المعارف عندهم خرافات ، فأنا قد انتهيت إلى زمان يرون الأدب عيباً ويعدون التضلع من الفنون ذنباً ، وإلى الله الحنان المشتكى من هذا الزمان قد سل سيف بغيه وعدوانه على من تحلى وتقدم على أقرانه ... » ويصل أخيراً إلى قوله ، الذى يُرَدِّدُه معه فى عصرنا هذا لسان حال العلماء والشيوخ : « يا نفس ... أقصرى عن هذه الشكاية ... فإن ذلك دأب الدهر وعادته » ، ثم يتمثل بقول الإمام الشافعى (ت ٢٠٤ — ٨٢٠) :

محن الزمان كثيرة لا تنقضى
وسروره يأتيك كالأعياد
مَلَكَ الأكابرَ فاسترقَّ رقابهم
وتراه رقاً فى يد الأوغاد

رودلف زلهايم
عضو المجمع المراسل من المانيا الغربية